الفصل الأول

توازن الإنسان والكون والإسلام

وقبل الحديث عن توازن الإسلام وملاءمته للإنسان والكون نتحدث أولاً عن مكونات الإنسان وكيف خلقه الله تعالى متوازناً رغم اختلاف مكوناته .

مكونات الإنسان

يتكون الإنسان من : نفس ، وروح ، وجسد ، وعقل ، وقلب .

وإليك بيان هذه المكونات :

الـروح

وهى نفخة من روح الله .

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص : ٧٢)

وهى ما بها حَياةُ الأَنْفُسِ .

وهى تهفو إلى معرفة الله ، وتطمئن بالإيمان به وعبادته سبحانه .

ولا نعلم عن طبيعتها ومكانها شيئاً .{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (الإسراء : ٨٥)

والروح عند جمهور العلماء المسلمين هو مدبر البدن الإنساني ، ومبدأ حياته وهو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر .

ولقد خلط بعض الناس بين الروح والنفس والحقيقة أنهما مختلفتان . فالنفس هي ذات الإنسان ، أما الروح فنفخة الخالق ، جل وعلا ، فيه .

النفس

وهى ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر .

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (الشمس : ٧ ، ٨)

والنفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك : (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك : فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت . (١)

وكما أن النفس تتصف بالإيثار ، والإرادة ، والتواضع ، والطموح ، والكرم ، والعزة ، والكرامة ، والتعاون ، والرضا بالقليل ، وحب الخير للناس ... فإنها أيضاً تتصف بالأثرة ، والعجز ، والكبر ، والكسل ، والبخل ، والذل ، والأنانية ، والجشع ، والحقد ، والحسد ، والظلم ، والطمع ، والغرور ، والتفاخر ...

وتحتاج النفس إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

العقــل

والعقل عند الفلاسفة هو بوجه عام ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، ويطلق على أسمى صور العمليات الذهنية بعامة وعلى البرهنة والاستدلال بخاصـــة وهو ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية ، وهو وسيلة المعرفة فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة . (٢)

وعند علماء العربية ، العَقْلُ : العِلْمُ بصـــفات الأَشْياء ، من حُسْنها وقُبْحها ، وكَمَالها ونُقْصانها ، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْن ، وشَرِّ الشَّرَّيْن ، ويكونُ بمُقَدِّمات يَسْتَتِبُّ بها الأَغْراضُ والمصالِحُ ، ولهَيْئَة مَحْمودة للإِنْســـانِ في حَرَكاته وكَلامه . والحَـــقُّ أنه نورٌ روحاني ، به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضَّروريَّةَ والنَّظَرِيَّةَ. وابْتِداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ، ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغِ . (٣)

والعقل يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ...

---

(١) تفسير الفخر الرازي للآية الكريمة ج١٧ ص ٢٠

(٢) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية .

(٣) القاموس المحيط .

القـلب :

وهو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو مجمع الوجدان والمشاعر ، وهو مستودع الأسرار ،كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال ، وهو متقلب : يحب ويكره، ويعمى ويبصر، يفرح ويحزن ، يطمئن ويخاف ، ويصح ويمرض ، ويَرق ويغلظ ، يرحم ويقسو ...

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } (آل عمران:١٥٩)

{ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ } (البقرة : ٢٢٥)

ولقد لوحظ عند نقل قلب إلى شخص من غيره تتغير صفاته ، في الحب والكره ، والرقة والغلظة ، والرحمة والقسوة بل في الإيمان والكفر ...

تقول د. فريدة الحبيب : " ظاهرة غريبة تتعلق بالمرضى الذين أجريت لهم عمليات زراعة قلب أثارت انتباه علماء وأطباء الولايات المتحدة الأميركية، فبعد تغيير قلوبهم تغيرت أيضاً أمور جذرية عميقة في شخصيات هؤلاء المرضى، واكتسبوا بعض صفات أصحاب القلوب الأصلية " (١)

ويقول عبد الدائم الكحيل بعد دراسة متعمقة لمئات المرضى الذين نقلت إليهم قلوب طبيعية أو صناعية : " أن المريض بعد أن يتم استبدال قلبه بقلب طبيعي أو قلب صناعي، تحدث لديه تغيرات نفسية عميقة، بل إن التغيرات تحدث أحياناً في معتقداته، وما يحبه ويكرهه، بل وتؤثر على إيمانه أيضاً " (٢)

والقلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " (متفق عليه)

ويحتاج القلب إلى الإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول ، والتناسق والنظام ...

---

(١) جريدة القبس الكويتية ١٩ مايو ٢٠١٠ .

(٢) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

الجســـد :

وهو البـــدن وما يحتوى عليه من الروح والنفس العقـــل والقلب والحواس وســـائر الأعضاء وله حاجات فسيولوجية أساســـية لازمة لحفظ الحياة وصحته النفسية وبقاء نوعه ، وهي نوعان :

١- حاجات فسيولوجية خالصة ، وهي التي تحفظ حياة الإنسان وإذا لم تُلَبَّ يفقد حياته مثل : الأكل ، والشرب ، والتنفس ، والإخراج ، والنوم ، والراحة .... لذا الله جلَّ وعلا خلق في الجسد مُنَبِّهات تُنَبِّهه إلى ضرورة إشباع هذه الحياة فإذا كان في حاجة إلى طعام شعر بالجوع ، وشعوره بالجوع يتزايد ويؤثر على نشاطه وجسمه ، وكذلك إذا كان الجسم في حاجة إلى الشرب شعر الإنسان بالظمأ وإذا لم يشرب ما يروي ظمأه يتزايد هذا الشعور فيجف حلقه ، وتجف شفتاه ويفتر جسمه ، وإذا لم يتنفس شعر بالاختناق ، وإذا لم يخرج فضلاته شعر بآلام في بطنه وثقل .. وإذا لم يشبع الإنسان هذه الغرائز الفسيولوجية الخالصة مات .

٢- حاجات فسيولوجية ذات طابع اجتماعي ، وهي ضرورية لصحة الإنسان الفرد النفسية ، وبقاء الجنس البشري لكن إذا لم تُلَبَّ فإنها تؤثر بالسلب على حياة الإنسان الفرد النفسية لكن لا يفقد بسببها حياته ، وإن كانت تهدد بقاء الجنس البشري مثل : الجنس ، والأمومة ، والعمل ...

هذه هي مكونات الإنسان وهى كما بينا بينها اختلاف فلكل طبيعته الخاصة واحتياجاته الخاصة أيضاً ، ومع هذا الاختلاف لا يوجد بين هذه المكونات ثمة تناقض .

الفرق بين الاختلاف والتناقض

وهنا لنا وقفة للتفرقة بين مفهوم الاختلاف ومفهوم التناقض .

الاختلاف معناه تغاير في الخصائص والصفات لشيئين أو أكثر ولكن لا يعنى الاختلاف أن صحة أحد الأشياء المختلفة تكون بالضـــرورة بطلان للشيء الآخر بل ربما يكونان متكاملين ، فمثلاً : الليل خلاف النهار فهل يعنى هذا أن أحدهما حق والآخر باطل أم أنهما متكاملان في نظر العقل .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ } (آل عمران : ١٩٠)

أما التناقض فمعناه أن صحة أحد المتناقضين بطلان للآخر ، فالحق نقيض بالباطل ، والإيمان نقيض الكفر ، والعدل نقيض الظلم ...

وإذا كان هذا كذلك فإن مكونات الإنسان متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين: ٤)

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (المؤمنون : ١٢- ١٤)

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً .

{ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً } (البقرة : ١٣٨)

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ "

(متفق عليه)

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقـــل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

توازن الكون :

وكما خلق الله الإنسان في أحسن صورة خلق الكون في أحسن صورة ، وكما خلق الله تعالى الإنسان متوازناً في عناصره خلق كذلك الكون .

{ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (يس : ٤٠)

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } (الحجر : ١٩ – ٢٠)

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

إن الميزان أو التعادل بين القوى والمؤثرات ظاهرة كونية شاملة تمتد من الذرة إلى المجرة . إن حركة الالكترونات في أغلفتها حول النواة تنشأ من قوى طرد مركزية تتعادل مع قوة الجذب الكهربائية بينها وبين النواة ذلك بتأثير التجاذب بين شحنات الالكترونات السالبة وشحنة النواة الموجبة .

إن وجود الأجرام السماوية مرتبط بالتعادل القائم بين قوى جذب الأجسام المركزية كالشمس مع قوى الطرد المركزية الناتجة عن دوران الأجسام التابعة كالأرض في مدار الشمس ، ولولا هذا التوازن لانحدرت الأرض وسقطت داخل الشمس بفعل جاذبيتها أو لخرجت من مدارها بعيداً عن الشمس ؛ ولهلكنا من البرودة الهائلة ببعدنا عن الشمس ، وكذلك سائر الأجرام السماوية فإن بقاءها مرتبط بهذا التوازن المعجز .

كذلك في الكائنات الحية هناك توازنات دقيقة بين أجهزتها وتفاعلاتها ونواتج هذه التفاعلات ، فالجسم الإنساني مثلاً يحتوى على آليات اتزان عديدة يشترك في أدائها خلايا الجسم كله وأجهزته ومنها الاتزان الحراري ، والتوازن الهرموني ، والتوازن المعدني ، واتزان بين التجلط والميوعة ، واتزان الدم بين الحموضة والقلوية ، واتزان خلايا الجسم بين التصنيع والاستهلاك .

إن بقية الكائنات الحية والإنسان على سطح الأرض مرتبط بالاتزان القائم بين جاذبية الأرض والضغط الجوى الواقع على الكائنات من ناحية ، والسرعة الهائلة لدوران الأرض حول نفسها من ناحية أخرى .

كذلك إن ثبات القشرة الأرضية فوق الطبقة المصهورة التي تحتها مرتبط بتثبيت الجبال للقشرة بربطها بالطبقة المصهورة كذلك فلا تهتز القشرة وتترنح فوق الطبقة المصهورة التحتية تحت تأثير دوران الأرض بسرعتها الهائلة .

لكل كائن حي حيواناً كان أم نباتاً دورة حياة يتفاعل فيها مع التربة والماء والهواء وغيرها من الكائنات ، كما أثبتت المعارف الحديثة أن دورة الحياة في الإنسان ترتبط بدورة العناصر المحيطة فمن عناصر الأرض يتكون الإنسان وعلى نتائجها يتغذى ، ويتفاعل معها أخذا وعطاء في عملية التمثيل الغذائي والإخراج وتجديد الخلايا طوال حياته ثم يتحلل بعد مماته .

دورة الخلايا الحية والتي تتمثل في الاستهلاك ثم التجدد المستمر لخلايا الإنسان وغيره من الكائنات الحية فالخلايا الحية تتحول إلى مواد غير حية (الميت من الحي) لتحل محلها خلايا جديدة (الحي من الميت) مثال ذلك : الخلايا الجلدية تتجدد كل ٥٧- ٥٩ يوماً ، وخلايا الدم الحمراء كل ١٢٠ يوماً ، والصفائح الدموية كل ٧-١٠ أيام ، وكرات الدم البيضاء كل ٦-١٢ ساعة .

دورة الكربون : الكربون هو العمود الفقري للمركبات العضوية التي تتكون منها سائر الخلايا الحيوانية والنباتية ، يعتمد الإنسان في غذائه على الحيوان والنبات بينما يعتمد الحيوان في غذائه بدوره على النبات ، ويحصل النبات على غذائه من طاقة الشمس بتمثيل غاز ثاني أكسيد الكربون والماء من خلال عملية التمثيل الضوئي وبذلك يتحول ثاني أكسيد الكربون وضوء الشمس والماء إلى خلايا نباتية حية يتغذى عليها الحيوان والنبات لتكوين خلاياهم الحية من نواتج هضم الطعام "الميت" يتجدد ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوى بعمليات التنفس في الإنسان والحيوان والنبات (الميت من الحي) وتتحلل هذه الكائنات بعد موتها .[١]

توازن الإسلام :

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً – كما سبق وبينا- فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن CD نيل سوفت .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

{ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } (الشورى : ١٧)

وحذَّر الله تعالى الإنسان من اختلال الميزان ، والميل لجانب على حساب الآخر كالميل للدنيا على حساب الآخرة أو الميل للجسد على حساب الروح { ولا تخسروا الميزان }

{ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ١- ٩)

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون ، وأمره تعالى للإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون ، وأكد الله تعالى هذا بالتقرير {ووضع الميزان} والتعليل {ألا تطغوا في الميزان } (لكي لا تتجاوزا الحد) والأمر {وأقيموا الوزن بالقسط} ثم بالنهى {لا تخسروا الميزان} .

أهناك تأكيد أكثر من هذا على وجوب اتخاذ التوازن منهج حياة ودستوراً شاملاً لفهم الدين والدنيا جميعاً ؟!

ثم تدبر ثانية قوله تعالى " وأقيموا الوزن بالقسط " والقسط هو العدل ، لكن ما هو العدل ؟

ميزان العـدل

للعدل معانٍ كثيرة منها " العدل: ضدُّ الجور ، وعدّل الميزان : سوّاه ، العَدْل هو الذي لا يَميلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم ، وقيل : العَدْل تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتى تجعله له مِثْلاً، ومن أسماء الله تعالى: الحكم العدل . " (١)

ومن هذه التعريفات للعدل يتبين لنا أن ميزان العدل يجب أن يكون .

أولاً : مُنَزَّهاً عن الهوى .

---

(١) انظر مادة عدل في لسان العرب .

ثانياً : غير جائر في الحكم .

ثالثاً : مقوِّماً (بتشديد الواو وكسرها) ما ليس من جنسه .

وبناء على هذا التعريف إذا أردنا ميزان عدل للإنسان فمن الذي يضعه ؟

هل يضعه الإنسان نفسه ؟

بالطبع لا .. لأن الإنسان غير مبرأ من الهوى .

كما أن الإنسان من نفس جنس المُقَوَّم (بتشديد الواو وفتحها) فكيف يكون هو الخصم والحكم في آن واحد ؟!

والعدل يقضى أن خالق الإنسان هو الذي يضع له ميزانه وهو الذي يحكم به ولا سيما أن هذا الخالق – سبحانه– مُنَزَّه عن الهوى بالإضافة إلى إحاطة علمه وشموله لكل ما في السموات والأرض وما بينهما وعلم ما شاء من شيء بعد .

كما أن هذا الخالق – سبحانه وتعالى – هو الذي خلق السموات والأرض بميزان العدل { وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } (الرحمن : ٧) .

والله تعالى سوف يحاسب الناس يوم القيامة بمقتضى هذا الميزان العادل الذي لا ظلم فيه .

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } (الأنبياء : ٤٧)

فترى ماذا يكون الميزان العدل هذا ؟

إنه كتاب الله تعالى : القرآن الكريم { الرحمن علم القرآن }

والله تعالى يأمر نبيه الكريم ، وكل ولي أمر أن يحكم بكتاب الله العزيز الحكيم، وألا يتبع أهواء وميول البشر باسم الديمقراطية فلا اجتهاد في نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة إنما الاجتهاد في غير ذلك .(١)

---

(١) ولقد ضل أقوام حكَّموا عقولهم وأهواءهم وطرحوا دين الله بالكلية ؛ فأباحوا الخمر والميسر ، والزواج المثلى ، أباحوا الزنا والسفور والفجور والشذوذ ... كل هذا باسم الديمقراطية وأن الناس اختارت ذلك وأقرته !!

{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ } (المائدة : ٤٩)

{ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } (الأنعام : ٥٧)

وأن هذا الأمر ليس جديداً على الإنسانية فمنذ أن أرسل الله تعالى رسله للناس أنزل معهم بيان الحق وكتاب الشرع ، وميزان العدل ؛ ليقضوا بين الناس بما علمهم الله ولا يتبعوا أهواءهم .

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } (الحديد : ٢٥)

ولم يترك الله تعالى الأمم تتخبط خبط عشواء تحتكم لعقلها القاصر أو أهوائها الجامحة إنما أرسل لكل أمة رسولاً ليقضي بينهم بالحق والعدل .

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } (يونس : ٤٧)

كما أمرنا الله تعالى أن يكون ميزان العدل الإلهي هو القانون الذي نحتكم إليه.

{ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (الشعراء : ١٨٢)

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقاً لا يشمل الأقرباء دون الغرباء، ولا الأغنياء دون الفقراء ، ولا الضعفاء دون الشرفاء ، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهي سواء بسواء .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (النساء: ١٣٥)

وكان النبي مثال العدل بما فهم عن الله تعالى .

{ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (المائدة : ٤٢)

وأخبرنا النبي ﷺ أن اختلال ميزان العدل كان السبب في هلاك الأمم .

" إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " (متفق عليه)

كما أمر الله تعالى بالعدل بين طوائف المؤمنين ، وبقتال الطائفة الباغية حتى ترجع لأمر الله فإن رجعت يُصلح بين الطائفتين بميزان العدل الإلهي .

{ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الحجرات : ٩)

وتأمل معي ختام الآية والتأكيد الشديد على إقامة العدل بين الناس أجمعين ؛ فميزان العدل الإلهي يتسع ليشمل كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

{ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

ومن مظاهر هذا العدل المطلق أنه شمل الأعداء أيضاً أهناك أعظم من هذا ؟

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ (أي لا يدفعكم كره) قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } (المائدة : ٨)

أليس هذا العدل هو عين الرحمة وأن من أنزله هو الرحمن الرحيم ؟

أعرفت الآن لم بدأ الله تعالى آيات سورة الرحمن ، بل السورة بل جميع سور القرآن[١] ، باسم الله تعالى " الرحمن "[٢] ذلك الاسم العظيم الذي لا يشاركه فيه أحد والذي من آثار رحمته أن أنزل القرآن .

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا } (الإسراء : ٨٢)

هذا القرآن العظيم الذي هو شفاء لأمراض القلوب ، وأوهام العقول ، وشهوات النفوس .. ورحمة للمؤمنين لأنه { يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

---

(١) ما عدا سورة التوبة لأنها نزلت في المشركين وهم لا يستحقون رحمة الله تعالى{ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} (الأعراف:١٥٦)

(٢) وأكثر العلماء على أن "الرحمن" مختص بالله عز وجل ، ولا يجوز أن يسمى به غيره ، وقد قيل في اسمه الرحمن: إنه اسم الله العظم؛ ذكره ابن العربي ، وقيل {الرحمن} لجميع الخلق .

ومن آثار رحمته تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠) ، وتعليمه البيان (أي تعليمه من العلوم والمعارف ما يعينه على فهم القرآن ومعرفة أحكامه)

{ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }
(القيامة : ١٧ – ١٩)

ومن آثار نعمة الله تعالى على الإنسان أن خلق له هذا الكون .

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}
(الرحمن : ٥– ٧)

وجعل فيه من كل شيء موزون بميزان العدل الإلهي .

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } (الحجر : ١٩– ٢٠)

وعلى هذا تحدد الآيات – أوائل سورة الرحمن – أولويات الإنسان :

فأولاً : وقبل كل شيء أن يعرف خالقه " الرحمن " ثم يتبع أوامره " القرآن " ليفهم نفسه ويفهم الكون .

وأن كلا من القرآن ، والإنسان ، والكون يتسمون جميعاً بميزان العدل ولا عجب فجميعهم صادرون عن الرحمن : فالقرآن كلامه ، والإنسان خليفته ، والكون بديع صنعه .

إن رحمة الله تعالى قد وسعت كل شيء وصدق الله العظيم إذ يقول :

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } (الأعراف : ١٥٦)

قال رسول الله ﷺ : " لما خَلَقَ اللهُ الخلقَ كَتَبَ في كتابٍ كتبهُ على نفسه ، فهو موضوع عندهُ على العرشِ : إنَّ رَحمتي تَغْلِبُ غَضَبي ". في رواية: " سَبَقَتْ غضبي " .(متفق عليه)

وكما أمر الله تعالى الإنسان بالتزام ميزان العدل ، نهاه أيضاً عن الإخلال به {ولا تخسروا الميزان } .

وبعد الحديث عن العدل يأتي الحديث عن الظلم ؛ أفليس بعد العدل إلا الظلم ؟

والظُّلْمُ : وضْعُ الشيءِ في غير مَوْضِعِه ، والخروج به عن مقتضى العدل ، فمن كفر بالله فهو ظالم لحق ربه عليه .

{ يَا بُنَى لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }(لقمان ١٣)

ومن يتعدى حدود الله ظالم لنفسه .

{ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } (الطلاق : ١)

والمقلد غيره ظالم عقله .. والظالم عقله حيوان .. والظالم أهله عاق .. والمتجبر ظالم الناس .. والمهمل في عمله ظالم صاحب العمل.. والذي يغش لينجح ظالم المجتهد .. والراهب ظالم دنياه ، والكافر ظالم آخرته ...

فهل بعد هذا البيان تسمع دعوى جهلة الدين وخوارج العصر الحديث القائلة بأن الدين مأثـــور لا علاقة له بالمعقول أو أنه نقل لا عقل ؟!

ولا غرو أن انتشار هذه المفاهيم الخاطئة بين المسلمين قد أوردتنا موارد الهلكة ، ونزعت من قلوب أعدائنا مخافتنا ، بل جرأتهم علينا وعلى ديننا حتى أصبح الإرهابي يعنى المسلم عند الغرب !! .

اتفق أنى تقابلت مع مجموعة من الطلاب الروس الذين يدرسون اللغة العربية وجرى بيني وبين أحدهم حوار طويل وعندما آنست منه ارتياحاً لكلامي عرضت عليه الإسلام – وكان ملحداً – فأجابني على الفور أتدعونني للتخلف ؟! إن المسلمين هم أكثر الناس تخلفاً في العالم ، وتاريخهم كله مؤامرات وقتل و .. و..

واضطررت لمقاطعته وعبثاً حاولت إفهامه أن هناك فرقاً كبيراً بين الإسلام وما يدعو إليه من عدل وإحسان وما ينهى عنه من فحشاء ومنكر وبغى ، وبين أفعال المسلمين ، وكان صعباً على الرجل أن يفهم أن المسلمين المتخلفين أصحاب دين عظيم ، وعندما تدبرت الأمر عذرت الرجل فما يعرفه الغرب عن أحوال المسلمين يزكم الأنوف .

لقد أساء كثير من المسلمين للإسلام مرتين مرة بعدم فهمه الفهم الصحيح ، ومرة عندما نفَّروا غيرهم منه .

ومن أحجيات الدهر أن تلصق تهمة التطرف والإرهاب بالإسلام ذلك الدين القيم الذي لا تعرف عقائده ولا شرائعه إلا العدل والرحمة ومصلحة العباد الحكمة .

يقول ابن القيم : " إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ص – أتم دلالة وأصدقها وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهداه الذي به اهتدى المهتدون وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوي العالم وهي العصمة للناس وقوام العالم وبها يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقى من رسومها فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة" (١)

فمدار الشريعة الإسلامي هو مصلحة العباد في المعاش والمعاد بعكس جميع المذاهب والأفكار البشرية التي تعرفها دنيا الناس والتي تتسم بتطرفها في الدين أو تطرفها في الدنيا أو تطرفها في كليهما .

والإسلام يتفرد بأنه وسط في الاعتقاد والتصور.. وسط في التعبد والتنسك .. وسط في الأخلاق والآداب .. وسط في التشريع والنظام .

وسطية الإسلام

الإسلام وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد فيصدقون بكل شيء ، ويؤمنون بغير برهان ، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا

---

(١) ابن قيم الجوزية " أعلام الموقعين عن رب العالمين " ج٣ ص ٣ .

يستمعون لصوت الفطرة ، ولا لنداء العقل ، فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني ، وما عدا ذلك يرفضه وشعاره دائما ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ١١١)

والإسلام وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار ، وألّهوا الأوثان والأحجار .

وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود ، وبين الذين لا يؤمنـــون إلا بالوحي والإلهام ولا يعـــترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات، فالإسلام يؤمن بالعقل ويدعوه للنظر والتفكير ، وينكر عليه الجمود والتقليد ، ويخاطبه بالأوامر والنواهي ، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود وهما : وجود الله تعالى ، وصدق دعوى النبوة ، ولكن يؤمن بالوحي مُكمِّلاً للعقل ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف ، وما تغلب عليه الأهواء ، وهادياً له إلى ما ليس من تخصصه ولا هو في مقدوره من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى .

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر

والإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب الرباني – جانب العبادة والتنسك والتأله – من فلسفتها وواجباتها كالبوذية التي اقتصرت على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده .. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبنة المسيحية .

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة ، أو في السنة كالصوم ، أو في العمر كالحج ليظل دائما موصولاً بالله ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله .

وسطية الإسلام في التشريع

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي . فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم وكثرت فيه المحرمات ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في كتابهم المقدس : العهد القديم ، والعهد الجديد .

الإسلام لم يحرم إلا الخبيث الضار كما لم يحل إلا الطيب النافع ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } (الأعراف : ١٥٧)

التوازن بين الفرد والجماعة

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي ، والمذهب الجماعي ، فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية ، واعتبار الفرد وهو المحور الأساسي فله حرية التملك ، وحرية القول ، وحرية التصـــرف ، وحرية التمتع ، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفســـه ، وإضرار غيره مادام يستعمل حقه في " الحرية الشخصية " فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا ، وينفقه في اللهو والخمر والفجور ، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين ، ولا سلطان لأحد عليه لأنه " هو حر " .

والمذاهب الاشتراكية – وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية – تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه ، والإكثار من واجباته ، واعتبار المجتمع هو الغاية و هو الأصل ، وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك " الآلة " الجبارة التي هي المجتمع ، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة ، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم ، وإذا شئت قلت هي اللجنة العليا للحزب ، وربما هي زعيم الحزب فحسب ، هي الدكتاتور !! إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات ، وليس له حق المعارضة ، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته ، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي ، فالسجون والمنافي وحبال المشنقة له بالمرصاد !

فلا عجب أن جاء الإسلام – وهو دين الفطرة – نظاماً وسطاً عدلاً لا يجور على الفرد لحساب المجتمع ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه ، وإنما يكلفه من

الواجبات في حدود وسعه ، دون حرج ولا إعنات ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته . [1]

قانون ماعت

لقد كتبت ما سبق ذكره عن ميزان العدل ونشرته منذ ما يقرب من عشر سنوات، وكنت أُعِدُّ هذا المفهوم عن ميزان العدل غير مسبوق وفوجئت ، وأنا أدرس الحضارة المصرية القديمة بأن المصريين القدماء توصلوا إلى هذا المفهوم ، وإليك ما جاء عن هذا المفهوم في الحضارة المصرية القديمة .

إن حكام مصر في عصر الدولة القديمة قد اتخذوا قانون " ماعت " دستوراً للحكم، وأن طاعة المصريين حكامهم كانت مشروطة بالتزامهم بتطبيق قانون ماعت فإن خرجوا عليه ثار المصريون عليهم .

ولقد مثلت شريعة " ماعت " القانون الأساسي لجميع الطبقات الاجتماعية، ولم يكن هناك من هو فوق القانون على الإطلاق ، وكان المواطنون في مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الدعاوى القضائية تنظر في المحاكم المحلية باستثناء الجرائم التي تنطوي على عقوبة الإعدام، التي ينظرها الفرعون باعتباره القاضي الأعلى .

يقول د. سليم حسن : كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعية فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " **ومن ثَمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالِق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب**

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول وسطية الإسلام راجع كتاب " الخصائص العامة للإسلام " الفصل الرابع "الوسطية" د. يوسف القرضاوى مكتبة وهبة .

تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى . (١)

وبناءً على ذلك فإن فترة فرعون موسى تعد إحدى تلك الفترات القليلة التي خرج فيها الفرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرةً لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن قانون " ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ {٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخَرِينَ }(الزخرف : ٥٤ – ٥٦)

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

يقول علماء المصريات : " عندما خلق الخالق الكون ، شكَّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابق للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنَّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشْتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت"

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " الهيئة المصرية العامة للكتاب ج١ ص ٢٣٩

هي كُلاً من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون . " (١)

يقول يان أسمان (٢) : " ماعت تعني أساساً " النظام الكوني " أو " النظام الكوني المتكامل " ، وهذا التصور يجد ما يقابله في الفكر أو في مفردات الحضارات الشرقية الأخرى . ويلخص " شميد " (٣) النتائج التي حصل عليها بقوله : إن تأملات الحضارات الشرقية عن العالم تنطلق من نقطة واحدة وهي اعتقادهم في نظام كوني مطلق وكفيل هذا النظام هو الخالق الواحد الذي لم يخلق العالم فقط ، وإنما يحافظ على النظام الكوني كسيِّد أعلى والملك يمثله في نفس الوظيفة على الأرض . " (٤) وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون "ماعت" في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقْل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان "ماعتياً" أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت "ماعت" تجسيداً للحقيقة والعدالة . " (٥)

وهذه بعض إجابات إنسان ثقلت موازينه في الآخرة لأنه اتبع شريعة " ماعت " في الدنيا ولم يرتكب ما يخالفها .

- أنا لم ارتكب جريمة قتل .
- أنا لم ارتكب جريمة اغتصاب .
- أنا لم انتقم لنفسي ، ولم أُرْهِب أحداً ، ولم أقم بفتنة .

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٩٧

(٢) يان أسمان ، عالم ألماني كان يعمل بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، وهو يشغل منذ عام ١٩٧٦ منصب أستاذ بجامعة هيدلبرج أقدم جامعة ألمانية ، وفي عام ١٩٨٤ انتخب عضواً في أكاديمية العلوم بهيدلبرج . وقد نشر مصنفاً ضخماً يرجم فيه الأناشيد والأدعية المصرية القديمة .

(٣) شميد ، عالم متخصص في العهد القديم ، وأكثر علماء الغرب تحليلاً للتصور المصري للماعت ، والذي قدَّم تفسيره عن " العدالة كنظام الكون المتكامل " عام ١٩٦٨ والذي يعتبر اليوم رأياً متفق عليه بين علماء المصريات . انظر يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " ترجمة د. زكية طبوزاده ، ود. علية شريف دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٢

(٤) يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " مرجع سابق ص ٢٢ ، ٢٣

(٥) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧ .

- أنا لم أسبب لأحد ألماً ، ولا حزناً .
- أنا لم أظلم أحداً من الناس ، ولم أتصرف بطريقة شريرة .
- أنا لم أسرق ، ولم آخذ شيئاً ليس من حقي .
- أنا لم أكن مختالاً ، ولا مطففاً في الميزان .
- أنا لم أفسد الأرض الزراعية .
- أنا لم أشهد بغير الصدق ، ولم أتهم أحداً زوراً .
- أنا لم أكن فاحشاً ولا بذيئاً .
- أن لم أحتقر أحداً ، ولم أسخر من أي إنسان .
- أن لم أتجسس على أحد .
- أنا لم أتعجل في إصدار حكم ، وإذا حكمت لم يكن حكمي قاسياً .
- أنا لم أخطئ في حق أحد ، ولم أقصر في حق أحد .
- أنا لم ألوث المياه الجارية .
- أنا لم ألعن الله ولا احتقرته ، ولا فعلت ما يكرهه .
- أنا لم أسب الله ، ولم أسرق صناديق الزكاة والصدقات والنذور .

وهذه المبادئ التي جاءت في قانون ماعت يؤكدها ما جاء في " كتاب الموتى"،كتاب المصريين القدماء المقدس، عند دخول المتوفي قاعة الصدق (الحق) وقيامه بالدفاع عن نفسه يوم يرجع الناس إلى ربهم ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

- إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة .
- إني لم أسرق .
- إني لم أرتكب القتل .
- إني لم أسبب تعساً لأي إنسان .
- إني لم أرتكب الزنا .
- إني لم أترك أحداً يتضور جوعاً .
- إني لم أفعل ما يمقته الإله .
- لم أغتصب طعاماً .
- إني لم أنطق كذباً .
- إني لم أنقص مكيال الحبوب .
- لم أكن طمَّاعاً .
- إني لم أسب .
- لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب .
- لم أكن متكبراً .
- فمي لم يثرثر .
- لم أعب في الذات الملكية [1].

([1]) د. حربي عباس عطيتو " الفكر الشرقي القديم " دار المعرفة الجامعية ص ٢٥٦ .

قانون ماعت وشريعة الإسلام

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنتج الآتي :

١- أن الله تعالى خلَق الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢- كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣- إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤- أن الله تعالى أنزل قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥- يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦- الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون " ماعت " .

٧- الإنسان الشرير هو من كذَّب بقانون " ماعت " واتبع هواه .

ولو قارنَّا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون "ماعت" بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

***